إنـه قادم

من تأليف:

أوليفر أوشمان & سيلفيا فيت

أيقظ الحصى الذي رُمي على النافذة "فيكتور" أولًا. كان يشخر للتو. خرمشت مخالبه الخشب. انتفض واقفًا. مشى إلى النافذة. شكَّل نفسه بسرعة ضبابًا رطبًا على الزجاج.

نهضت.

توهج *الحرش الكبير في الحديقة. نفد الضوء من بين الأغصان والأوراق. بدا كالعسل اللزج المتوهج. لم يكن الكبار ليلاحظوا ذلك. هذا بالإضافة إلى أن الجميع ينامون في هذه الساعة المتأخرة من الليل. هذا ما تقتضيه دورة الوقت.

كانت لينا هي التي رمت الحصى ثم تسللت على الفور إلى حديقتنا.

أنَّ "هيكتور". وضعت يدي خلف أذنيه. إنهما ناعمتان وغضروفيتان في الوقت نفسه. قلت: أتريد أيضًا الخروج الآن؟
نظر إلي بعيونه الكبيرة. شعرت بلسانه الطري على وجنتي. هذا يعني: نعم!

تنهدت. ارتديت ملابسي ونزلت السلالم متسللًا. همست: اسحب مخالبك إلى كفك. بالطبع لا يستطيع "فيكتور" القيام بذلك كالقطة. إلا أنه كان أحيانًا يمشي محدثًا صوتًا، وأحيانًا بهدوء. ولكنه قرر الآن المشي بهدوء. من المؤكد أنه لم يفعل ذلك لأني أمرته بذلك، لا بل لأنني أريته كيف يفعل ذلك.

---

*"حرش": حرش (وجمعها أحراش) هو مكان تنمو فيه شجيرات متوسطة الطول متباعدة نسبياً.

سمعت شخير أبي من خلف باب غرفته. كان نفسه ينقطع أحيانًا لبضع ثوان. وعندما يتابع الشخير يبدو الأمر وكأنه يأخذ ما فاته من نفس. يشبه الأمر إفراغ دلو في سيل. كان ثوب المفكرين معلقًا على الخطاف الحديدي في الشماعة.

سطع القمر في السماء. كان قبل عدة أيام مكتملًا. أما الآن فقد بهت لونه. لفنا هواء الليل كبطانية ناعمة. استنشق "هيكتور" الهواء مغمضًا عينيه بسرور. كان الدخان ما يزال يتصاعد من مدخنة بيت أهل "لينا" في الجانب الآخر. عمّ السكون. هبّ الهواء برفق من بين قمم الأشجار، وحرك أوراقها. كان الحرش الكبير موجودًا بالضبط على الحد الفاصل بين الحدائق.

كنا قد جوفناه من الداخل أول مرة عندما كنا أطفالًا، وشذبناه منذ ذلك الوقت بشكل دوري. لم يكن من السهل رؤية المدخل. ما أن يزحف المرء إلى الداخل حتى يشعر بأنه في قبو.

جلست "لينا" في الداخل أمام مصباحها الزيتي الصغير وإلى جانبها سلة. وخزني غصن في أذني وأنا أزحف إلى الداخل. تذمرت قائلًا:
ـ نحن لم نعد أطفالًا. هذا بالإضافة إلى أن ما نفعله يتنافى مع دورة الوقت.
دخل "هيكتور" متسللًا ورائي. دلكت "لينا" أذني "هيكتور".

ضحكت "لينا" وقالت:
ـ لكل شيء وقته المناسب. من الواضح أن ابن المفكر يؤمن بهذه المقولة.

كنت لأغضب، ولكن أصابعها ألهتني عن ذلك. لا أحد يدلك أذان الكلاب كما تفعل "لينا".

أبعدت يدها عن "هيكتور" ووضعتها في السلة قائلة:
ـ كما أنه لا يُسمح لنا أيضًا بالأكل في الليل.
قضمت قطعة من الخبز المقرمش، وأعطتني قطعة بيدها الأخرى.

شممت قطعة الخبز. كانت رائحتها زكية. كانت متبلة وحلوة في الوقت نفسه. قالت:
ـ العجينة متبلة بالأعشاب، وهي تحتوي كذلك على الملح والسكر. إنها فكرة أبي. والخبز مقرمش لأنه يتركه طويلًا في الفرن.

ترددت. كيف لها أن تجلس هناك وتأكل هكذا بكل بساطة. إنها يقظة في منتصف الليل، هكذا وكأنه ليس هناك قوانين.

قلت:
ـ إن دورة الوقت تولد الطاقة. إنها كالعجلة. إن لم تسر بشكل دائري فستهتز. سينكسر المحور. ستنقلب العربة. ونحن نجلس كلنا في نفس العربة.

نظرت "لينا" إليّ. انعكس الضوء بلون خضار الأوراق على وجهها. علق فتات خبز في زاوية فمها. قالت:
ـ أتعتقد حقًا أن جماعتنا ستفنى إذا تناولت قطعة من هذا الخبز؟

أجبت:
ـ إن دورة الوقت جزء من الطبيعة. هناك نظام لكل شيء. القمر يطلع الآن في السماء وليس في ظهر الغد.

قالت:
ـ ليس على القمر أن يأكل شيئًا.

قضمت الخبز قبل أن أغير رأيي. قهقهت "لينا". يبدو أن تعابير وجهي كانت مضحكة. كان فمي ممتلئًا فلم أتمكن من الكلام.

قالت:

ـ تبدو وكأنك تتذوق طعم الحرية.

أكملت مضغ اللقمة وبلعتها. قلت:
ـ نحن أحرار.

سألت:
ـ حقًا؟ بالفعل؟ ستصبح مفكرًا مثل أبيك. وأنا سأعمل في الطاحونة كأمي. سيصبح "فالك" حدادًا. وسيصبح "بشير"...
لم تعرف ماذا عساها تقول عن صديقنا البعيد.

قلت:
ـ سيصبح بشير نجارًا.

قهقهت "لينا". شعرت بمفعول التوابل في حلقي. شعرت وكأنني شربت شايً لذيذ الطعم. سألت:
ـ لماذا يعد والدك الخبز؟

ـ إنه يلهي نفسه بذلك. إنهما يتشاجران كثيرًا.

ـ والداك؟ لماذا؟

ـ هناك الكثير لتفعله أمي في الطاحونة. أما أبي فإنه يشتاق أحيانًا إلى القتال، وإلى التدخل في عراك رجلين في حانة. وليس عليه الآن منذ سنوات سوى مراقبة التزام الناس بقواعد العناق والوشوشة والحديث.

ـ القواعد ممتازة. يقطع الناس أعناق بعضهم البعض ليلًا في القرى الأخرى الموجودة خلف الغابات الشمالية. أما في الشرق ما وراء الجبال فتُنظم العروض القتالية في ساحة القرية.

ـ وما أدراك بهذا كله؟

قاطعتنا عطسة. كانت رطبة وعالية الصوت. نظرنا إلى جانبنا في الحرش. كان عند حافة المغارة قنفذ يتشمم الأرض بحثًا عن حشرات. قالت "لينا":
ـ ما أجمل عطس القنافذ.
أرادت "لينا" الإمساك بالقنفذ، ولكنها عدلت عن ذلك.

رفع "هيكتور" رأسه. داعبته الآن حتى لا تخطر في باله فكرة غبية وينقض على القنفذ.

ـ ترى، هل سبق ورأينا القنفذ خارج الحرش؟

قلت:
ـ لا. لقد اتخذ له هنا منزلًا.

ضحكت. ظهرت غمازات في وجنتيها. بدا الخط الممتد بين جذر أنفها وحاجبيها وكأنه مرسوم. شعرت بأن علي قول شيء حاذق. أردت قول شيء ينال إعجابها.
ـ تخيلي أن هذا القنفذ يعتقد أن هذه المغارة عالمه.

ـ كيف ذلك؟

وضعت يدها مرة أخرى في السلة.
ـ أعني كونه لم يخرج من هنا أبدًا، فهو لا يعرف أن هناك المزيد من المروج. إنه لا يعرف شيئًا عن بيوتنا وعن قريتنا وعن الحقول والغابات وعن العالم ما ورائهم.

نظرت "لينا" إلى الحيوان ذي الأشواك. أصبح يلهث الآن. بدا وكأنه كان يفضل النوم على البحث عن الطعام. نهض "هيكتور". أخرجت "لينا" قطعة لحم من السلة.
ـ خذ يا "هيكتور". لقد أحضرت معي شيئًا لك أيضًا.

تشمم كلبي قطعة اللحم بانبساط، إلا أنه أنَّ بعدها. استلقى على الأرض. زمجر القنفذ. لم يعطس. ولم يلهث. لقد زمجر.
ـ ما أمرهما؟

ـ "هيكتور"؟

انحنيت ونظرت إلى عينيه. لمعت عيناه. كان خائفًا. راح يعوي.
ـ لا تعو. لا تفعل ذلك. ستوقظ أبي هكذا.
لم يكن من الممكن تهدئته.
ـ عليّ العودة إلى الداخل يا "لينا".
أومأت برأسها. أدركت هي أيضًا الآن خطورة الموقف. لا يجوز لنا الالتقاء ليلًا. إن لدورة الوقت مغزى.

تسللت إلى خارج الحرش، وجذبت "هيكتور" إليّ. ظلت "لينا" في الحرش. نظرت إليّ. كان وجهها محاطًا بأوراق الأشجار.
ـ سنلتقي في صباح الغد في ساحة القرية.

أردت معانقتها كما تقتضي قواعد القرية، ولكنها لا تحب ذلك. ذلك مع أن أبوها مسؤول عن مراقبة التزام الجميع في القيام بذلك. سيكون عليها القيام بذلك ابتداءً من السنة القادمة. عندها سنكون قد بلغنا العمر الذي يلزمنا بذلك. أنَّ "هيكتور" ثانية. ركضت معه بسرعة إلى البيت.